ديزيره سقال

رَقيم الصحراء



٢٠٢١

ديزيره سقال

رَقيم الصحراء



٢٠٢١

– ١ –

وَجَعٌ يَنْحَفِرُ على وَجْهِ الضباب،
والمدى صَحراءُ تَثْقُبُها رايَةُ الوَطَن...

انْزِلي، انْزِلي أَيَّتُها الشَّمْسُ إِلى سَرابِ الهَجير.
ذاكرَتي تَنْفَجِرُ في تِيهِ الأَمْكِنَة،
وَرُؤْيَتي يُبَعْثِرُ زَواياها الضَّياعُ.

انْزِلي، انْزِلي أَيَّتُها الشَّمْسُ،
ظَلِّلي بِهَجيرِكِ هذه الصَّحراءِ المديدَة
واعْصِبي رَقيمَها الذي يُسَمّى وَطَني بِشَوْكِ الذِّكرى
وهَمساتِ الأَلَمِ والحَنين.
انْزِلي، انْزِلي أَيَّتُها الشَّمس
واجْعَلي ذاكِرَتي مِحْفَظَةً لِأَنوارِ الماضي،
واحْفُري حُروفَ زَماني عَلى رَقيمِ الصَّحراء.

تَدِبُّ الهَواجِسُ في الذاكِرَة، ويَلْبَسُ التاريخُ خَلخالَهُ في خَراب الأَمْكنَة ونَشيجِ الخرائِب، ويَحْمِلُ الليلُ

هَواءَهُ الساخِنَ إِلى أعماقِ الرئات/ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّني أَتَفَتَّتُ في الغبار، وَأَحْمِلُ في جَسدي جَسَدَ مدينَةٍ أَضاعَها الرِّبا في قَيْءِ الرِّياء، وحاصَرَها بالزّيفِ حَتّى انفَجَرَتْ.

أَسْمَعُ أَصواتًا بَعيدَةً تخرجُ مِن ظلامِ المدى، والمدى مُقفِرٌ إِلّا مِنَ الرَّمْلِ وَأَعراسِ الدَّمْعِ وَالغَضَبِ. أَسمعُ صَوتَ الذّاكرَةِ وَهيَ تبحَثُ عن نفسِها، وَصَوْتَ سَعْيِ الناسِ الباحِثينَ عنْ رَغيفِ الاكتِفاء.

تَدِبُّ الهَواجِسُ في الذّاكِرَهْ
كُلُّ شَيْءٍ يُحيطُ بِبَيروتَ يَبْكي
وَيَنْصبُ أَحْزانَهُ في عيونِ المدى الماكِرَهْ.

كُلُّ شَيْءٍ غُبارْ
وَالصّدى دَمْعَةٌ
تَتَرَجَّحُ بَيْنَ السَّما وَالقَرارْ.

كُلُّ شَيْءٍ يَنامُ بِعَيْنِ الأَسى الآسِرَهْ،
والعُروشُ يُرَقِّعُها صَلَفٌ وَدَمارْ.

– ٢ –

مَنْ أَنْتِ، أَيَّتُها الصَّحراءُ؟

بَينَ الكَثيبِ والكَثيبِ تاريخٌ ماحِلٌ، وحَولَ الوجوهِ صَدَأٌ. رَمْلٌ مُمْتَدٌّ. رَبْعٌ خالٍ إلّا مِنَ الهَجيرِ وَالرِّياحِ السَّموم وَعَواءِ العُروشِ التي تَتَرَبَّصُ بالناسِ/ كُلُّ حَرْفٍ في لُغةِ القَهْرِ وَتِدٌ مَغْروس؛ كُلُّ حِكْمَةٍ جَسَدٌ مَنْزوعُ الرَّأْس؛ كُلُّ ساعَةٍ وَباءٌ، والزّمانُ أَبْجَدِيَّةٌ لِلضَّياع.

كَيفَ نَخْرجُ منَ عاصِفَةِ الصَّحْراءِ وَنحنُ في رَبْعٍ خالٍ؟

كَيفَ السَّبيلُ إلى الماءِ وَالرَّمْلُ يَغْمُرُ الطّريقَ؟

كَيْفَ نَخْرُجُ إلى مَكانٍ جَديدٍ وَالوَقْتُ يُطْبِقُ علَينا، وَالهواءُ ثَقيلٌ كالمصْلِ الفاسِدِ، وَالليلُ حَبْلٌ حَوْلَ أعْناقِنا؟

أَنّى لَنا أَنْ نَعودَ إِلى الوَطَنِ وَالوطَنُ ثابِتٌ، فارِغٌ كَرَقيمِ الصَّحراءِ؟

ما عادَ الوقْتُ صديقَنا.
ما عادَ الصَّمْتُ راحَةً لِنفوسِنا.
ما عادَتِ الشَّمْسُ تُدْفِئُ أَجْسادَنا.
كُلُّ شَيْءٍ يَعزِفُ في الرّيحِ نَشيدَ الصَّمْتِ الأَسْوَد.
كُلُّ شَيْءٍ يَغرَقُ في القاتِ، ويَمْضَغُ الوقْتَ جامِدًا مِثْلَ كوكَبٍ مَشْدوه.
كُلُّ ما كانَ سَرابٌ...

الوطَنُ ثابِتٌ، فارِغٌ كَرَقيمِ الصّحراء،
وَالأَرْضُ طَبْلٌ أَجْوَف،
وَالنفوسُ هَباءٌ منثورٌ بَدَدًا على الرّمل.

هذا أَوانُ الوَقْتِ البائر.
هذا أَوانُ الصّدى.

– ٣ –

جسدي مدينةٌ أَرهَقَها اللصوصُ فانفجرَتْ.

جسدي رقيمٌ تنحفر فيه أسماء الأَشياء، ويُمْسَحُ منه اليقينُ ليصير كلّ شيء سرابًا/ حيرتي مفتاح الدخول إلى وطن يسكن خارج الوطن، وشعب يعضّ الهباءَ كلّما أَوْمَأَ الفجرُ إليه: لا عيونَ له ولا آذان. يكتب الأبجديّات ناقصةً، ويبتكر الرياء رايةً لحياته كلَّ يوم.

جسدي وطنٌ بلا وطن،
ووجهي هويّةٌ معطّلة في رقيم الصحراء.

لا شيء في عَراء الصمت سوى ضباب يُقنِّع الهوَّةَ
بسراب الذكاء.
لا شيء سوى دائرة للحبر لا تُكتَب فيها أَبجديّة،
ولا ينبلج فيها وحي، ولا تكون قصيدة غير الغياب.
لا شيء يومئ للفجر غيرُ الظلام.
لا شيءَ يومئ للفجر...

لا شيء يومئ...
لا شيءَ...
غيرُ الظلام...

الريحُ طحالب تهبّ مِن فِكرٍ اسْتَنْقَعَ في بركة الوطن،

واليأس راية لضمير الصحراء.

كلُّ وجهٍ يحترق على ملامحَ غائبةٍ في جوفِ أفقٍ مذبوح،

والأسماء تخرج من الحروف/ تصير محوًا/ تصير عمرًا خارج الزمان:

باء تمدّ قامتَها، وتغمز السماءَ لتغدوَ معطفًا لها.

ياء تمتدّ على طول الشاطئ، يتسلّل إليها القراصنة والمراؤون.

راء تحصد مِنْ حَولِها المالَ ليصير في جوفِها عَلقَمًا قاتِلًا.

واو تسأل الزمانَ مَن سَرَقَ امتدادَها وتَرَكَها وحدَها على هذا الشاطئ الملوّث؟

تاء ضاعتْ بين الحضارة والبربريّة، وكلُّ ما حولها مقفرٌ... مقفر...

بيروت: واقعٌ لسلالات الجرح،
برّيّة خرّبها أَنبياءُ كاذبون
ويَبَّبَ أَرضَها سمٌّ يخرج من النفوس.

بيروت شعبٌ يحترق
وإماراتٌ من النوم على شاطئ لا يُفيق.

بيروت وجعُ الأنبياء أمامَ مدخل الصحراء،
حلمٌ يضيع في عالمٍ لا أبناء فيه،
فردوسٌ فارت فيه الأفاعي، فانتصبَ أسودَ على مداخل الصحراء.

- ٤ -

كانَ وجهي
زورقًا تحملُهُ الريحُ إلى أسمائها، والنورسُ الراحلُ فوقَ الماءِ سَيْلٌ من دموعِ الأَلَمِ المنسوجِ في قلبِ السماءْ.
هُوذا مِفْتاحُ أَحلامِ الرجاءْ

غائبًا بينَ فَقاقيعِ الصدى وسقوطِ الشِّعْرِ/ مَنْ يُصغي إِلى أَحْلامِهِ؟

مَنْ يُسْكِنُ الوقتَ على نافذةِ الموتِ؟

بقايا

مِنْ هبوبِ الطُّحْلَبِ المسكوبِ بالحيرةِ/ هذا البابُ يروي قصّةَ النورسِ في حُزْنِ الأغاني وأناشيدِ الصفاءْ،

والمدى من حَولِ أَحلامي سَرابٌ فائرٌ

في أَعيُنِ الصحراءِ والآتي وليلِ الكبرياءْ...

يومئُ النسيانُ للفجرِ، ولكنْ

ليسَ يُصغي اللهُ للأقنعةِ السوداءِ والبيضاءِ أو يصغي لزلفى ترتقُ الليلَ بآلامِ اليتامى/ ليسَ يُصغي اللهُ للآتينَ من كَهْفِ الرياءْ.

يخرجُ البحرُ إلى وجهِ الغيومْ،
جِلدُهُ مِنْ زَبَدِ الموجِ، ولا شيءَ يقينٌ غيرَ ما يوقدُهُ الصمتُ على أشلاءِ مَنْ ماتوا
وأوجاعِ النجومْ.

جثثٌ هذا المدى تطفو على بيروتَ، والآتي ضبابٌ/ كلُّ ما يومئُ أَعمى، وسلالاتُ الحروفِ انمسَحَتْ أسماؤها.

لا شيءَ في هذا المدى الملغومِ إلّا عَبَقٌ ناءٍ منَ الموتى

ومن رُعبِ التخومْ.

لا شيءَ فينا غَيرَنا.

لا شيءَ غيرَ الدمعةِ المضطربَهْ،

وبقايا اللونِ آهاتٌ ترامَتْ بينَ أَحزاني

وأَلوانِ الدجى المصطخِبَهْ.

لم يعدُ في أُفْقِ دُنيانا سِوانا.

لمْ يعد في أُفْقِ دُنيانا
سوى طَعْمِ الوُجومْ.
خِرَقٌ مِنْ عَبَقِ الصحراءِ
في جرحٍ ترامى خلفَ أَلوانِ السُّدومْ.

وجعٌ من حجرٍ
ينمو مدى الصحراءِ
أَقسى من تَباريحِ السمومْ.

– ٥ –

وجع الناس يثقب الفضاءَ،
والعينُ شاهِدٌ على احتراقِ الوطن.

أَينَ ارتمَتْ بشرَتُكَ السمراءُ بينَ الخرائب، أَيُّها المسْعِفُ؟

أَينَ احتمى تَبَعْثُرُ وجهِ الوطن بين الخرائب المترامية، أَيّتها الراية المنكَّسَة؟

كيفَ أُحرِّرُ الناسَ؟ والناسُ أَسرى في عقولٍ كبَّلَها الرّياءُ، وطبعَتْها شَهوةُ الزلفى، وأوثقَ يديها وقدميها ملوكُ الطوائف؟

كيفَ أحرّرُ لغتَكَ أَيُّها الوطنُ الذابلُ؟

لم يعد لنا وطنٌ
غيرُ هذه المراكبِ الراحلةِ في ظلامِ القلب.
لم يعد لنا وطنٌ
غيرُ هذا الأفقِ الممتدِّ في ظلامِ القلب.
لم يعدْ لنا وطَنٌ
غيرُ هذا الأُفقِ الممتدِّ إلى المجهول، واللغةِ المومياء.
ونحنُ
أَحشاءٌ مفتوحةٌ ملقاةٌ في الريح، تلتهمها العقْبانُ وجوارحُ الطَّير، وتبصقُ عليها ملوكُ الطوائف/

أَحشاءٌ مفتوحةٌ نحن، مَرمِيَّةٌ في صحراءِ هذا الوطَنِ، رايَتُها الصَّمْتُ والغَباء، وتاريخُها حُروبٌ مَنْسوجَةٌ بالرِّياءِ، وصَداها مَكْسورٌ، مُنهَزِمٌ في قَهْقَهاتِ المذبَحَة.

لم يعدْ لنا سوى جذور الماضي تنهَبُ الذاكرةَ، وتفتحُ لنا لغةً سَرابيّةً أقسى من غيابِ الزَّمَنِ، وَأَعْتى مِنْ مُراءاةِ الحاضرِ.

الوطنُ يموتُ مُكَفِّنًا نَفسَهُ بأصواتِنا الآسِنَة.

الوطَنُ يَسْتَنْقِعُ في النقطةِ التي ينتهي عنْدَها التاريخُ، يَدورُ حَوْلَ نَفْسِهِ كالبُلْبُلِ، وينسى رغباتِهِ، وينام/ لا عَصَبَ يَنْبضُ، ووجْهُ الأَرْضِ حِذاءٌ للسماءِ.

الشمسُ تُمَشِّطُ شَعْرَ الجثَّةِ الملقاةِ على مَرْفَإِ بيروتَ،
ووردةُ الوقتِ تَذْبُلُ فوقَ رَأْسِ الجثَّةِ،
وبينَ الأَنا والأنا فراغٌ يَمْخُرُهُما حتّى العَظام.

مقهى الليلِ باردٌ، مليءٌ بالفراغِ الذي يسبكُهُ الزمانُ القاتِمُ، وضجيجُ المقهى صَمْتٌ أَرْعَنُ، لا يستسْلِمُ لِغيرِ الحطامِ المترامي.

مقهى الليلِ يلْمَعُ بينَ أَطيافِ بَشَرٍ صُفْرٍ، يحملونَ راياتٍ تُبَشِّرُ باللهِ (واللهُ فيها صَمْتٌ وامِّحاءٌ وذهولُ)، يُخْفونَ الجريمةَ تَحْتَ أَقْنِعَةِ الكلامِ، ويأْسِرونَ الوطنَ في غبارِ السياسةِ العرْجاءِ.

مقهى الليلِ يرتَجُّ مِنْ أَطْيافِ ذئابٍ تارةً تَنهشُ جسدَ الوطَنِ باسمِ الوطَنِ، وأُخرى باسمِ الأُسْرَةِ، أو الفَضيلَةَ، أَوِ الوطَنِيَّةِ، أو التَّحْريرِ، وثالثةً باسمِ تغييرِ الفَسادِ، وكُلُّهُمْ يَقْتَصُّ من جسَدِ الوَطَنِ لَحْمًا يَقْتاتُ مِنْهُ دونَ سِواهُ، ويتقَنَّعُ بأَلْوانٍ فارغَةٍ إِلّا مِنْهُ: خَضراءُ، وصَفْراءُ، وزرْقاءُ، وبرتقاليّةٌ، وبيضاءُ، وسوداءُ... أَلوانٌ تَجْمعُ الرياءَ في بُندقِيَّةِ صَيْدٍ واحِدَةٍ، تتقاطَرُ في الأرضِ مِنْ الجِهاتِ كلِّها، وَمِنْ أَبوابِ الأَطرافِ التي يَنْدَفِقُ فيها الموتُ والخراب.

رايةُ الأُفُقِ ممزَّقَةٌ،

والغضَبُ يتَجَمَّعُ في الزوايا.

رملٌ الصحراءِ يهبُّ في حَلْقِنا/ عقولُنا تَهيمُ في فراغِ المدى، والليلُ يَحْشُرُ عَسْكَرَهُ على رَقيمِ الصحراء.

بَيْتُنا هذا المطرُ الذي لا يُخْصِبُ الأَرْضَ: يَنحدرُ من السماءِ إلى حُلوقِ السفوحِ مِنْ غَيرِ أَنْ يُلامِسَ أَرْحامَها – مطَرٌ من حامِضِ النيتْراتِ يُفجِّرُهُ حِقْدٌ مُقَنَّعٌ، وجَشَعٌ مكَدَّسٌ، ورِياءٌ بارِدٌ كالموتِ.

بيتُنا هذا العَراءُ الذي يضِجُّ بالدمِ والخرابِ والضحايا،

وهذا العُقْمُ المتكرِّرُ في عَطَشِ الأَرْض.

بيتُنا هُبوبُ الصدى

حينَ يكونُ الصدى تَرْدادَ أُكذوبَةِ الوطنِ المتغَيِّرِ

– وطَنٌ صَلْدٌ، ثابتٌ في الأَقْنِعَةِ، تَرْعى فيه الذِّئابُ والضِّباعُ بِأَقْنِعَةِ الرُّسُلِ وَالهادينَ والمقاوِمينَ...

وطَنٌ أَجَّروا فيهِ الناسَ لمشاريعَ من خارجِ الصحراءِ، تتلاقى وتفترِقُ وتتاقطَعُ كلّما انْحرَفُ الزمانُ نحوَ مُفْتَرَقٍ أوْ طريق.

وطَنٌ أَفجَعُ منَ الضَّياعِ

يترامى في صَحرائِهِ أَخْرَسَ كالرّمل.

– ٦ –

وجعٌ يَنحفِرُ على وَجهِ الضباب.

بيروتُ صاريةٌ ممزّقةٌ تَثقبُ صحراءَ الوطن، والوقتُ هَباءٌ طويلٌ يُذَرُّ فوق الهاوية، والناسُ ظِلالٌ تَرْعَشُ تحتَ عينِ المساء المقفلَة/ وقتٌ باردٌ كالموتِ، والصوتُ المتَهَدِّلُ يُعلِنُ الدخولَ إلى بَوّابةِ الجحيم/ وقتٌ أَعورُ يَعرجُ في زوارقِ الرياح، والزمانُ أضاعَ اسمَهُ في هذا الرقيمِ المحموم.

كلُّ شيءٍ يُشيرُ إلى مقصلةِ السؤال،

والحاكمُ ذئبٌ أَعورُ يَنهشُ لَحَمَ قلبِ الناسِ.

كلُّ شيءٍ يُشيرُ إِلى مقصَلَةِ السؤال
والأرضُ تهدأُ عندَ بابِ الصحراء:
كلٌّ شيءٍ صائرٌ إلى الجحيم
في هذا الوقت الذي لا يعرفُ إلّا أن يَسخر –
أراهُ يركضُ بين خرائطِ
الأرواح المبعثرة/ أراهُ ينذرُ نفسه لواقعٍ
يرتجف تحتَ أَجراسِ النَّهْب/ أَراهُ
يَنكفئُ في جشَعِ حُرّاسِ الصحراء
ومَتاهاتِ الأَقنعةِ التي تركبُ
العروش/ أَراهُ يحملُ المتاهاتِ إلى
صقيعِ الذاكرة، ويكتبُ بحروفِ
الفراغِ أَقسامَ كتابِ اللعنةِ –

عصرٌ ملعونٌ تخطُّهُ ضِباعٌ رَشَوا قافلةَ الموتِ، وآخَوا وَسوسَةَ الرياء في دُجُنَّةِ الكارثة، وعَصروا الحياةَ عَصْرًا لتذوبَ كوبًا من الهباء.

عصرٌ جَهَنَّمِيٌّ يفصلُ بينَ الذاتِ والذات، يتطاول بينَ مرآةِ الحكمِ الفاسِدِ ومطرقةِ الجوعِ القاسيةِ.

عصرٌ خشبيٌّ، جافٌّ، جعلَ الحياةَ بورًا، ويَبَّبَ الوطنَ تحتَ رايةِ التغييرِ.

عصرٌ زَرْنيخِيٌّ، فتَحَ البابَ للموتِ تحتَ رايةِ المقاومةِ الخَفَّاقة.

عصرٌ مُعتِمٌ، فجّرَ قلبَ الوطنِ خلفَ شِعارِ مستقبلِ السماءِ الزرقاء.

عصرٌ أَسيدِيٌّ ذبحَ أَحلامَ الأَطفالِ تحتَ رايَة النَّصْفِ واشتراكيّةِ اللقمةِ بينَ الناسِ.

عصرٌ زاحِفٌ كالموتِ، يلبسُ أَقنعةَ حُماةِ الوطنِ، ويغتالُ الحُماةَ في شعاراتِ محاربةِ الفسادِ.

عصرٌ أَجْوَفُ، يلهثُ تحتَ جسدِ الليلِ، تفتكُ فيهِ ضِباعُ المالِ بالمعْوِزينَ والمقتدرين.

لا شيءَ ينسلُّ في موسيقى الصمتِ سوى الذاكرةِ/ ذاكرةٌ أَضاعَتْ ذاكرتَها، وحَشاها العمى والرياءُ تِبنًا، وقبعَت في زوايا الإهمالِ أَشَدَّ ظلامًا من الليل.

لا شيءَ سوى الذاكرةِ المقفَلَة.

لا ذاكرةَ غيرَ الليلِ ورقيمِ الصحراء.
لا ذاكرةَ سوى الضباب.
لا ذاكرةَ...
كلُّ شيءٍ ضَباب.
كلُّ شيء فَراغ.

الليلُ يسطو على حصص القبائل، والملوكُ حروفٌ من القهْرِ نُقِشَتْ على أَضرِحَةِ الأَبطالِ، والطوائفُ بكاءٌ مختومٌ بنَدَمِ الأَولياء/ إِلى أَيْنَ ترحَلُ، أَيُّها الصِّدْقُ الهزيل؟ وكيفَ نكونُ القاتِلَ المقتولَ في جريمةِ الصباح؟

لشهرزادَ حكاياتٌ لا تنتهي في هذه الروايةِ العمياء.

لشهرزادَ في هذه الصحراءِ أَلْفُ أَلْفُ شَهريار،

والرملُ معجونٌ بالغضب،

والحروفُ كُوَمٌ فارغةٌ في خطَبِ البلاغةِ المخادِعَة/

ينزل الوحيُ ولكنَّهُ لا يقولُ شيئًا. ينزل الوحيُ أَخرسَ كلَوحي الوصايا اللذين انكسرا عندَ سَفْحِ الجبل، والكَتَبَةُ كلُّهُم فَرّيسيّون مراؤونَ يُتَمْتِمونَ بلا صلاة — ترهَّلَتِ الصلاةُ حتّى خُتِمَتْ بالصمت، والشاعرُ يأكلُ التبنَ والهراء.

قوافلُ الطوائفِ تسجدُ أمامَ ملوكِها،

والعروشُ مرقَّعَةٌ بالدمِ والعظام.

أَيُّها التاريخُ الغائبُ،
ماذا فعلْتَ بالذاكرة!

– ٧ –

لجبالٍ تَدَلَّتْ معَ الشمسِ
تلثمُ وجهَ السماءْ،
للغيومِ التي تركَتْ لونَها
لِابْيضاضِ الجبالِ وشَيْبِ القِيَمْ،
لِمدًى شاخَ في صرخاتٍ تَشقُّ العَدَمْ،
لامتدادِ الضياءْ...
كُنْتُ أَحلمُ بالوطنِ المتفتّحِ في تربةِ النورِ

أو في حقولِ السناءْ.

وكانَتْ حقولُ الأماني
تواكبُ وَسْوَسَةَ الريحِ وَهْيَ تُداعِبُ
شَعْرَ الفضاءْ –
كُنتُ أَحلمُ...
لكِنّني، إذْ فَتَحْتُ على الليلِ عَيني،
تكسَّرَ حلمي على شَوْكِ صبّارِهِ،
وتبَدَّدَ قَبْضَ هَباءْ...

وطني ظِلُّ تَرْحالِنا في جليدِ النبوءاتِ حينَ تصيرُ قِناعَ الطوائفِ، أَو تتبعثرُ في كلِّ زاويةٍ، أَو تُوَزَّعُ بينَ الأَزِقَّةِ مُفْرَغَةً من رؤاها، وتُرمى بَدَدْ...

وطني ظِلُّ هذا الحصارِ الذي يتمدّدُ في كلِّ منطقةٍ

ويوزِّعُ أَفكارَهُ كالأَبَدْ.

وطني مُغلَقٌ في دروبِ حَشاشتِنا.

أَغلقَتْهُ الطوائفُ فائرةً من زوايا السماءِ التي وزّعوها عليها،

وجُدِّلَتِ الناسُ حولَ مُراءاتها كالعُقَدْ.

لم يعدْ غيرُ أَشرعَةِ الكلماتِ التي رحَلَتْ في غيابِ المعاني وتِفْلِ البلاغةِ.

لا أَحَدٌ يتحرّكُ في غيرِ عَتْمَتِها...

لا أَحَدْ...

وطنٌ مائعٌ كالكلامِ، تمرُّ عليهِ الرياحُ فتذروه حولَ الطوائفِ، تُقَسِّمُهُ حصصًا بينَها/ ستكونُ المنافي عيونَ الذينَ يرونَ إلى غدِهمْ. سيكونُ الكلامْ

وطنًا فارغًا كالصدى.

سيكونُ الظلامْ

قاربَ الزمنِ المستحيلِ

وعينًا تراقبُ ما يتبعثرُ

من جُثَثِ الناسِ بينَ الحطامْ.

ليس يخرجُ من جاهليّةِ هذا الزمانِ الكفيفِ سواكُمْ، وتنكسرُ الشمسُ بينَ القبائلِ/ راياتُها وجَعٌ يتخفّى وراءَ الوجوهِ/ قناديلُها لا تضيءُ، وأَنجُمُها سقطَتْ/ بعضها يتكوّر في غيمةٍ مزّقتها الرياحُ، فلا شيءَ يظهر فيها سوى نُتَفٍ وضبابْ

هيكلٌ للخرابْ.

هيكلٌ تتصدَّعُ أَقسامُهُ

في أماني الغيابْ.

بينَ ليلِ القبائلِ والأرضِ صحراؤها

والأماني ترابٌ... ترابْ...

بينَ ليلِ القبائلِ
والزمنِ المتناثرِ في القلبِ
لونُ الجحيمِ
وأرضٌ يَبابْ...

- ٨ -

قالت لي الصحراءُ:
هذا هو اسمي، يتموّج في الريح/ يتشقّق/ يصير دخانًا وأسماء،
وأنا أغرق في رمالي شيئًا فشيئًا.
قالت لي الصحراءُ:

وِطْؤُكَ يُقَسِّمُ وجهي، ويحرّك الرملَ، وبين الحبّة والحبّة وطنٌ يروحُ وآخر يجيء/ بين الحبّة والحبّة أنقاضٌ وخرائبُ تنسحبُ على أسطورة الحرّيّة.

قبائل تبتلع الشوارع، تَنقشُ فيها آلهةً من خشبٍ وحديدٍ ومالٍ وذهب، وتركع أمامها مُطَأْطِئَةَ الرؤوسِ، وتقدِّم الناسَ أضاحِيَ لها.

قبائلُ تخترع خرافةَ عبادةٍ، وتذبح العبادةَ في مَسالخِ النَّقْدِ والثَّراء.

قبائلُ تفور على رملِ الصحراء، تُصَحِّرُ واحاتِها، وتحجِّر السماءَ حولها، وتجعل المشهدَ رسمًا سرياليًّا يُبكي مَن يراه حتّى انتحار البكاء.

(لوحات)

– لوحة –

طوائفُ تفور في المدى كأسراب الرمل.
بينها وبين الوطن دماء،
والوطنُ حولها صحراءُ يَزْحفُ فيها اليباب.

– لوحة –

طوائفُ من كلِّ لونٍ،
تَغرق في ضوء القمر،
وتَحْتَجِبُ بسِتارِ الظلام.

– لوحة –

طوائفُ تنمو بين الأنقاض،
تُعمي عيونَ العابِدينَ بطلاسمِ السياسة،
وتَبيع اللهَ في بورصةِ المال.

– لوحة –

طوائفُ تكسوها الجثث
منَ السماءِ حتّى أعماقِ الجحيم.

– لوحة –

طوائف تتحرّك آنًا بينَ أسلاكِ السفارات،
وآونةً بينَ زوايا الكنائسِ والمساجد،
وتَرحلُ في مَجاريرِ النقود.

– لوحة –

طوائفُ من دمٍ ودموع
تنمو من جوعِ الناس،
وتَزرعُ أقنعتَها في العقول.

رقيم الصحراء ينمو ويتّسع
ويُنجب الجرذانَ والجراد/
كلّ وجهٍ سَبخَةٌ محروقة تحت ذَقْنِ الله،
والخُطَب حروفٌ فارغة تغرق في الرمل...

- ٩ -

ضَيَّعَتْنا الدروبُ التي بَدَّدَتْها الرياحُ على حِكمَةِ الجَهْلِ.
بيني وبينَ الفصولِ شِتاءٌ مُقيمٌ
وشمسٌ تذوبُ على البرْدِ
في وطنٍ قَسَّمَتْهُ الطوائفْ.

يَنْحَني الشِّعْرُ فَوقَ الخرائِبِ،
يَقرَأُ:
بينَ عَباءاتِنا يَتَكَوَّمُ لَوْنُ الهويَّةِ خائفْ.
يتدلّى الضَّياعُ على صَهَواتِ الكلامْ،
والصدى يتوزَّعُ بينَ حطامِ الزمانِ،
وبينَ الأَنامْ.
وجَعٌ مُحْرِقٌ يَفتَحُ الصَّمْتَ في سَرَيانِ التَّفَتُّتِ،
يَبْلَعُ أَحْلامَنا في الظلامْ،
والردى يتجمَّعُ عَبْرَ المدى ضاحِكًا...
كي يَنامْ!

شُرْفَةٌ للمساءِ على ضفَّةِ العيْنِ/ كانَ ظِلُّ الهلالِ الذي يَتَكَسَّرُ فوقَ سطوحِ المنازِلِ سلسلةً من غيابِ الضياءِ، ولونُ الزمانِ يضيعُ على عَتَباتِ الغيابْ —

كلُّ شيْءٍ غيابْ.

كلُّ ما حَوْلَ هذا الفضاءِ القتيلِ

يُعشِّشُ فيهِ الذبابْ:

جُثَثٌ في قناديلَ أَطْفَأَها حُزْنُها،

فارتمَتْ في حقولِ اليَبابِ،

وأَرهَقَنا صَمْتُها المتمدِّدُ بينَ الحَنايا.

وطنٌ يتكسَّرُ بينَ الضحايا.

وطنٌ باردٌ كالترابْ

بَدَّدَتْهُ صِراعاتُهُ في المرايا.

أَخَذَتْني الرياحُ إِلى آخرِ الحلْمِ، فانكشفَ الحلْمُ
عَنْ كِذْبَةٍ – لَمَ يكنْ ما نراهُ وَطَنْ!
كانَ صحراءَ هامَتْ طَوائفُها
في امتِدادِ العَفَنْ،
والمدارُ الذي حَوْلَنا يتحرَّكُ بينَ دخانٍ تلاشى
وبينَ فَراغْ –
شَمسُنا لم تعُدْ شَمسَنا،
وطوائفُنا شاعرٌ كاذِبٌ
ضاقَ فيهِ البَلاغْ.

كلُّ شيْءٍ هَباءٌ،

ووَقْعُ الرياءِ ثَقيلٌ.

هنا آلةٌ للكلامِ، وما فيهِ مَعْنًى،

وهنا خطَبٌ تَتقنَّعُ بالدينِ،

باعَتْ ضَميرَ الديانِةِ للشرقِ والغربِ،

أو تَتَقَنَّعُ مثلَ سياساتِها بحقوقِ الأَنامْ:

وجَعٌ مُحْرِقٌ يفتَحُ الصمْتَ في سَرَيانِ الرياءِ،

ويَشربُ أَحْلامَنا في الظلامْ،

والردى يتجمَّعُ في قلبنا

ضاحِكًا... ضاحِكًا...

كي ينامْ!

– ١٠ – (أصوات)

(صوت)

الليل يعدو في خواء السراب،

والوطن حقلٌ من الأفيونِ

يَنْخُرُ الذاكرة.

(صوت)

موتٌ يفور على وجه البسيطة كالعفن،

والزمنُ راية ممزّقةٌ

مَرمِيَّةٌ في زوايا الصحراء.

(صوت)
الريح مِمْحاةٌ
تَستيغ الكتابةَ في الهباء.

(صوت)
وجوهنا مماسِحُ
تستعملُها الطوائفُ في المِحَن.

(صوت)
قلوبُنا طبولٌ فارغةٌ

لا دَرْدارَ لها،
ولا صدى.

(صوت)
كُهّانُنا وشيوخُنا
مشروعٌ لصناعة الشيطان.

(صوت)
الناسُ أَحذيةٌ لَمّاعَةٌ
ينتعلُها ملوكُ الطوائف.

(صوت)
أَبطالُنا اليومَ خِرَقٌ
تُمسَح بها النِّعال.

(صوت)
صار التاريخُ
وَهْمًا بلا لون.

(صوت)
الشعبُ ماشيةٌ

فِي مزرعةٍ دَعَوها وطَنًا.

(صوت)
الصمتُ أَثْقَلُ من الكلامِ
فِي حلوقِنا.

(صوت)
الوجع ينبتُ كالفطرِ
فِي زوايا قلوبنا.

(صوت)
الشمس دائرةٌ من الرصاص
في رقيمِ الصحراء.

(صوت)
عندما يتكلّم النبيُّ
لا يَسمعُهُ أَحدٌ.
وحينَ يفور الصدى
يَصمُّ آذانَنا.

(صوت)
لا حولَ لنا
غيرَ خُطًى تغرقُ في رمال الصحراء.

(صوت)
كلّما هَبَّ بينَنا بطلٌ
تكشَّفَ عنْ قِناعٍ، وسقطَ.

(صوت)
الخطابةُ بوقٌ مبحوحٌ في الصحراءِ

يبوِّقُ بهِ داعيَةٌ باسمِ الله.

(صوت)
راياتُنا أَلوانٌ
لا يراها غيرُ حامِلوها.

(صوت)
الحِزبُ قضيّةٌ
لا قضيّةَ لها سوى نفسِها.

(صوت)
المالُ هو الإلهُ الحَقُّ
في هذه الصحراءِ المقفرةِ.

(صوت)
المؤمِنُ الحَقُّ
هو مَنْ لا يؤمِن.

(صوت)
البطلُ الحَقُّ

هو الذي يَفتَديهِ الناسُ ليعيش.

(صوت)
الحَقُّ خِرْقةٌ
تُمسَح بها الأَحْذِية.

(صوت)
"وطنُ الأرزِ" شِعارٌ
اهترأَ وتمزّقَ في الدروبِ.

(صوت)
الصدى رَجْعُ فَراغِنا
في الوطن الخالي إلّا من الشعارات.

(صوت)
أَعْمالُنا قيودٌ
تُقَيِّدُنا بها ملوكُ الطوائفِ.

(صوت)
أَطفالُنا وَجَعٌ

يحملُ آثامَ طوائفِنا.

(صوت)
العِظاتُ في المعابد
هباءٌ يُذَرُّ في العيون.

(صوت)
الغربةُ في الوطن
صدًى لحُكْمِ ملوكِ الطوائفِ.

(صوت)
حُكّامُ الصحراء
أَقزامٌ يتَخَفّونَ بأجسادِ عَمالقة.

(صوت)
تَكبير المآذِنِ وأَجراسُ الكنائس
بُكاءٌ طويل على الشريعةِ الغائبة.

(صوت)
الآتي

فراغٌ يزحَفُ في الصحراء.

(صوت)
أَحلامُنا سِلَعٌ
في تجارةِ ملوكِ الطوائفِ.

(صوت)
الأراملُ واليتامى شِعارٌ
ترفعُه الطوائفُ لجَمْعِ المال.

(صوت)
جِباهُنا أَحذيَةٌ
تلمِّعُها بَصْقاتُ ملوكِ الطوائف.

(صوت)
الآتي
فراغٌ يُذَرُّ في الصحراء.

(صوت)
لا شيءَ سوى الفراغِ

سجّادةً على مساحةِ الصحراء.

(صوت)

صمت.

(صوت)

....

....

- ١١ -

أَسمعُ أَصواتًا يَرْقعُها حداءُ الثورةِ وأزياءُ الثوّارِ المضحِكة.

أَسمعُ أَصواتًا يَنثرها الليلُ في الزوايا تُصدِرُ هَديرًا ولا تنقلُ معنًى، تَتدفَّقُ من أَجراسِ المتاهاتِ إلى الشوارعِ المخرَّبة.

يَنكسرُ الضبابُ على رمالِ الصحراء/ يتصدّع الأفقُ فوقَ خطّ البحر، وتمتلئُ قفَّةُ الريحِ بأشلاءِ الضحايا، ويغيب الصوت.

ينسكبُ الصمتُ فوقَ المسرحِ المليءِ بالحطام،
يتسلّل الخَرَسُ إلى أَلسِنةِ ملوكِ الطوائفِ.

وطنٌ ينفجرُ في جُرْنِ الهباء، والتاريخُ سقوطٌ مستمرٌّ في مسرحِ الجريمة.

وطنٌ يُشرفُ على الغياب، مُقَنِّعًا وجهَهُ بشَرْذَمَةِ الأحزاب، كاسِيًا جسدَه بكلّ كذبةٍ يقطفُها من دهاليزِ الخيال/ وطنٌ صدى

وطنٌ هباءٌ، يموتُ كلَّ لحظة أمامَ عيني طوائفِهِ.

وطنٌ تفورُ فيه المعاني، ولكنّهُ يتمسّكُ باللغو في أَبجديّة الصدى المتكرّرِ بلا دلالة.

وطنٌ آثِمٌ كالجحيم، يتمدّد في عروقنا فِطرًا سامًّا، لا يطيّبُهُ شعبٌ، ولا يفتحُهُ على الشمسِ قائدٌ أو نبيٌّ أو فادٍ/ كلُّ أَبطاله خِرَقٌ وَأَسْمالٌ/ كلُّ داعيَةِ حقٍّ فيه يَبيعُه

للموتِ بحفْنةٍ من الفضّة، أو بكرسيٍّ تُرَقِّعُها دموعُ المقهورين/ كلُّ عملةٍ فيه مغموسةٌ بالكذبِ والظلام...

وأنتَ، أَيُّها الميّتُ الذي لا يغسلُهُ المطرُ، ألا تنظرُ إِليكَ عيونُ الجِهاتِ وتردّدُ الصلاةَ على روحِكَ؟ ألا تَعتنقُ عقيدةَ خسارتِكَ، فلا تأملُ بقيامَة، ولا تُعَدّ من الموتى، بل جيفة مُنتِنَة مَرمِيّة فوقَ رمالِ الصحراء، زيّنوها بشعاراتٍ تافهةٍ، وسمّوها شعبًا؟

أَيُّها الميّتُ الذي لا يشعرُ بضجيجِ الحياةِ، ولا يُبارِحُ وليمةَ التخلّي، ولا يخرجُ من دوارِ المحاباة، أَيُّها الميّتُ الذي لا يعرفُ إِلّا أَن يموت، أما آنَ لكَ أن تطمحَ إلى دَورٍ آخرَ غيرَ دورِ الجثّةِ، أو أن تُبَشّرَ أعضاءَكَ المفتَّتَةَ بجسدٍ متماسكٍ، يمدُّ يدَهُ إِلى الشمسِ ليقطفَ الدفْءَ

والنارَ، لا ليبسطَ جفافَ الصحراءِ وحَرَّ السراب؟ أما آنَ لكَ أنْ تُعَمِّدَ الجَمادَ بالحركة، فينتقلُ منْ ثَباتِ الموتِ إلى حركةٍ تُعيدُ إليهِ بَشَرِيَّتَهُ؟

أَيَّتُها الجيفةُ التي يدعونَها الشعبَ، أَما آنَ لكِ أنْ تَشعري بالشهوةِ فتنتفضَ فيكِ الحياة، ويعودَ إليكِ اللونُ، وتنتظِمَ في قلبِكِ موسيقى النبَضاتِ؟

صمتٌ يحاصرُ وجهَ الصحراء.

صمتٌ حَجَرِيٌّ يَنوءُ بهِ وجْهُ الأَرض.

صمتٌ حجريٌّ من الجحيمِ يرتمي على مَدارِ الجِهاتِ، ولا يتزَحزَحُ.

صمتٌ يحاصرُ وجْهَ الصحراءِ،

ينامُ بقلوبِنا،

وقلبُنا فُندقٌ مفتوحٌ لفجائعِ الألوان:

– أَزرقُ يَتَصدَّعُ تَحْتَ شِعارِ رايةٍ بلْهاءَ خيطَتْ قِناعًا لأقزامٍ تَعَمْلَقوا.

– أصفرُ سرقَ هُويّتَه من النَّزْعِ، ووزَّعَ النَّزْعَ في زوايا الصحراءِ لتقاومَ حرارةَ الشمس.

– أَخضرُ خرجَ من لونِ النباتِ ليصيرَ يَبابًا على أَرْضٍ يَباب.

– أَبيضُ وأَخضرُ سرقا من الأُسرَةِ سَلامَها، ومن الوطنِ وَجهَهُ المضيء، وجعلا اللهَ

مِتْراسًا صلْبًا في وَجْهِ المؤمِنين، ورهَنَا صوتَ السياسةِ بالإقطاعِ.

– أَبيضُ وأَخضرُ وأَحْمرُ تُعلِنُ معًا جريمةَ العصرِ، وغَدرَ العقيدةِ الكاذبةِ بِمَنْ حولَها.

– برتقاليٌّ يَتقنَّعُ بحَمْضٍ فَتّاك، يَسْتَسيغُهُ الفَمُ، ثمَّ ينكشِفُ عَنْ سُمٍّ تتجرّعُهُ الجُموعُ.

صارتِ الأَلوانُ كلُّها فجائعَ داخلَ المشهدِ تفور منها رائحةُ الرياءِ عَبرَ السيناريو والممثّلينَ والأدوارِ، وتملأُ المسرحَ برائحةِ الفسْقِ والخديعة.

وأنتَ، أَيَّها العقْلُ المنعزِلُ في جليدِ النسيانِ،
أَلا تشتهي أَن تذوقَ طَعْمَ الحضور،
أَلا تودُّ أَن تخرجَ من خديعةِ اللونِ إلى روعةِ قوسِ
قُزحَ؟
أَيَّها العقلُ المنعزِلُ في الجليد،
نَبْضُكَ غائبٌ في هذا المدى البائر،
وحِكمتُكَ يَلْجُمُها الجَهلُ في رَقيمِ الصحراء.

– ١٢ –

سأُصغي إلى ليلِ الفَيافي مُخاطِبًا
وأرمي إلى الصحراءِ عُمْرَ خَيالي

فلا يَنفُثُ التاريخُ، بَعْدُ، مَهازِلًا،
ولا يَتَلَهّى هَهُنا بِقِتالِ؛
سَأُبْقي عَلى لوْنِ الحقيقةِ رايةً
وتَمسحُ راياتِ الرياءِ ظِلالي —
طَوائفُ بادَتْ في الخرابِ قَبائلًا،
وأَلْحَدَها التاريخُ تَحْتَ رِمالِ...

أَيُّها المستحيلُ الذي شرَّعَ القلْبَ،
مازلْتَ تشردُ وَحْدَكَ
في موجِ هذا الفراغْ.
أَيُّها المستحيلُ الذي مَجَّنا،

وعقَدْنا عليهِ أَكاذيبَنا،
فَفقدْنا البَلاغْ،
أَيُّها المستحيلُ الذي صارَ يَنزِلُ مِنْ وَحْيِهِ لوحةً
لا يراها الظلامُ سوى خِربةٍ بائرَهْ،
كيفَ نَخرجُ مِنْ تِيهِ صَحرائِنا ومدانا سَرابٌ،
وخطْوَتُنا حائرَهْ؟
كيفَ نَعثرُ في يأسِنا المتَهاوي على وَجْهِنا،
ونُعَرّي الضمائرَ عَنْ نورِها،
ونُلوِّنُ بالحَقِّ أَعماقَنا الثائِرَهْ؟
ليسَ فينا سِوانا،
ونحْنُ رمالٌ
كتِلْكَ التي تترامى

على مَدِّ صَحرائنا البائِرَهْ.
أَيُّها المستحيلُ الذي يتقمَّصُ تاريخَنا،
ويعيشُ على ظِلِّ أَحلامِنا،
قُلْ لَنا:
كيفَ نَخشى منَ القَوْلِ
والقولُ مِفْتاحُنا
لنُضيءَ على الأَرْضِ وَجْهَ السماءْ؟
كيفَ نُرْجِعُ للأَرضِ خِصْبَ بَكارتِها
لتقاوِمَ هذا الهَباءْ؟
أَيُّها المستحيلُ الذي خَضَّ تاريخَنا،
هاتِ أَصواتَنا
لنعيدَ إِليها حرارَتَها

ونقولَ بها ما نشاءْ.

سنَبْحَثُ يومًا عنِ الصِّدْقِ،
نَصنَعُ بالصِّدْقِ تاريخَنا
في تَهاوي الدروبِ،
ونفتَحُ بالصدقِ بابَ الزمانِ؛
تَعودُ طفولَتُنا رايةً لِتَباريحِنا،
ويَصيرُ السجودُ أمامَ ذُرى الأَرْزِ رايَتَنا —
كلُّ أَوجاعِنا تتعالى
لتفْتَحَ تِلْكَ الذرى المقفَلَهْ.
سيصيرُ المدى غَضبًا عارِمًا

يرفَعُ المقصَلَهْ.

إِنَّها أَرضُنا –
روضَةٌ يولدُ النورُ فيها من الوجَعِ المترامي،
وشَعبٌ يصوغُ من النارِ فِينيقَهُ
ليطيرَ منَ الأرضِ نحْوَ السماءْ.
أَيُّها الحقُّ، كُنْ صوتَنا المتفتِّحَ في بُؤْسِ تاريخِنا
لنُعيدَ إِليهِ حرارتَهُ
ونقولَ بهِ ما نشاءْ.

(١/ ٢٦/ ١٢/ ٢٠٢٠)



إِنَّها أَرضُنا –

روضَةٌ يولدُ النورُ فيها من الوجَعِ المترامي،

وشَعبٌ يصوغُ من النارِ فِينيقَهُ

ليطيرَ منَ الأرضِ نحْوَ السماءْ.

أَيُّها الحقُّ، كُنْ صوتَنا المتفتِّحَ في بُؤْسِ تاريخِنا

لنُعيدَ إِليهِ حرارتَهُ

ونقولَ بهِ ما نشاءْ.